

الرواية الحسينية بين البحث العلمي
والتاريخ الإسلامي والقصة الفنية المعاصرة
(الرواية الأربعينية - مجموعة «زوريه» نموذجاً)

الروائية والباحثة الإسلامية رجاء محمد بيطار
الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
rajaabitar69@gmail.com

الملخص

لعل الفرق الجوهريّ بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية، وما تقدمه الرواية الحسينية الأربيعينية من دمجٍ بينهما، هو أهم ما يركز عليه هذا البحث.

إن أهم ما تركز عليه الكتابة العلمية هو الموضوع الغني ذو القيمة الأصيلة، واللغة الخالية من العناصر الفنية، والأمانة في نقل الحدث بموضوعية.

وإن أهم ما تركز عليه الكتابة الأدبية هو الموضوع الوجدانيّ المؤثر، واللغة الجميلة ذات العناصر الفنية السلسلة، والسرّ الداتي الوجداني.

إن العوامل التي بيّناها توضح مدى الاختلاف وربما التنافر بين نمطي الكتابة المذكورين، مضموناً وأسلوباً، ولكن الرواية الحسينية تطرح بتقنياتها المبتكرة دمجاً لهذين النمطين المختلفين في نوعٍ أدبيّ موحد، فهي تحاول أن تجمع بين الأضداد، وأن تدخل الأدب من باب التاريخ، وهذا ما يركز عليه البحث الذي بين أيدينا، إذ يتم من خلاله طرح الاختلاف بين البحث العلمي التاريخي وبين الرواية الفنية، وكيفية دخول الرواية الحسينية إلى عالمها باستراتيجيات مدروسة، مع إسقاط ذلك على الرواية الأربيعينية، وذلك عبر مبحثين وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: القصة-الرواية-الأدب الحسيني-السيرة الحسينية-المسيرة الأربيعينية-الإمام الحسين عليه السلام-الثورة الحسينية.

The Husayni Narrative between Scientific Research, Islamic History, and the Contemporary Artistic Story

(The Arbaeen Narrative – The “Zuriyeh” Group as a Model)

Novelist and Islamic Researcher Raja Mohammed Bitar

Lebanese University – Faculty of Arts and Humanities

Abstract

The essential difference between scientific writing and literary writing—and the integration that the Husayni Arbaeen narrative offers between the two—is the central focus of this study.

Scientific writing is grounded in a subject rich with authentic value, a language stripped of artistic elements, and a commitment to reporting events with objectivity and accuracy.

By contrast, literary writing is based on an emotional and impactful subject, a language imbued with beauty and stylistic artistry, and a narrative style shaped by personal and emotional expression.

These factors illustrate the extent of difference, and at times even tension, between the two modes of writing in both content and style. Yet, the Husayni narrative—with its innovative techniques—presents a synthesis of these seemingly opposite forms into a unified literary genre. It attempts to bring opposites together, entering literature through the gateway of history.

This research, therefore, examines the divergence between historical scientific research and artistic narrative, and how the Husayni narrative strategically enters into both realms. The discussion is applied specifically to the Arbaeen narrative, explored through two sections followed by a conclusion.

Keywords: Story-Novel-Husseini Literature-Husseini Biography-Arbaeen March-Imam Hussein (PBUH)-Husseini Revolution

منهج البحث والإشكاليات المطروحة :

يتبع البحث منهجاً تحليلياً استقرائياً ينطلق من العام إلى الخاص، وي طرح الإشكاليات الآتية:

- أ. إلى أي حد نجح الروائيون العرب والمسلمون في دمج الرواية بالتاريخ؟
 - ب. ماذا قدّمت الرواية الحسينية لعالم الأدب من جديد، في إطار دمجها للرواية الفنية بالبحث التاريخي؟ وكيف يمكن للكتابة الروائية أن تستوعب البحث التاريخي بطريقة لا تخلّ بأيّهما؟
 - ج. إلى أي حد استطاعت الروايتان (غيرتها الشمس، و ١٤٥٢ عموداً) من مجموعة «يا أم سعيد زوريه» أن تعكس هذا الدمج الأدبي التاريخي؟
- أهمية البحث:**

إن البحث الذي بين أيدينا يتطرق إلى موضوع حيوي ذي أهمية خاصة، وذلك أولاً لجدّته، حيث ندر أن يتناول بحثاً ما هذا الموضوع من هذه الزاوية، وثانياً لمعالجته الموضوع بطريقة مبسّطة مفصلة، تصلح لتكون نواة بحثٍ موسع أكثر، لمن أراد التعمق في نفس التفاصيل، كما تصلح لتكون مرجعاً لمن أراد أن يدخل عالم الرواية الحسينية عموماً والأربعينية خصوصاً، كروائي أو كقاصّ، وذلك عبر التعرّف إلى الاستراتيجيات الفنية لطرق دمج التاريخ بالرواية، دون الإضرار بأيّ منها، سواءً من الزاوية العقائدية أو العلمية، أو حتى الأدبية.

المبحث الأول

الرواية الحسينية، بين البحث التاريخي والعمل الفني

ميّز الناقدون عموماً بين أنماط الكتابة، وحدّدوا لكُلٍّ منها ضوابط ومقوماتٍ وشروطاً ترتكز عليها، وقد تمّ تصنيف معظم الأنماط الكتابية تحت عنوانين رئيسيين، هما: الكتابة العلمية والكتابة الأدبية.

وميّز الناقدون أيضاً بين طريقتين لسرد الأحداث التاريخية، السرد العلمي الموضوعي الذي يقوم على نقل الأحداث بأمانةٍ ودقّةٍ وموضوعية، بلغةٍ علميةٍ رصينةٍ بعيدة عن الصناعة اللفظية والمعنوية، والسرد الأدبي الذاتي الذي يقوم على صياغة الأحداث التاريخية في قالبٍ أدبيٍّ وجدانيٍّ، بلغةٍ أدبيةٍ شاعريةٍ حاملة، قد تتخللها بعض الصناعة اللفظية والمعنوية.

والمعروف أن كلّ كتابةٍ يكتبها الإنسان تهدف إلى مخاطبة القارئ بصيغة العقل الجمعي، وتقوم على التأثير في ذلك القارئ، إما عن طريق العقل والمنطق والتحليل العلمي المدروس والصبغة العلمية البحتة، وإما عن طريق القلب والعاطفة واستخدام المؤثرات الحسية والوجدانية، للوصول إلى أعلى درجات التأثير.

إن الجمع بين هاتين الطريقتين في الكتابة يؤدي عموماً إلى فشل الكاتب في صياغة المحتوى الفكري للمادة، وفي الوصول إلى هدفه، وبالتالي فقد تباينت وتباعدتا بقدر تباعد وسائلهما وأهدافهما، لأن الكتابة العلمية تهدف إلى الإقناع المنطقي، أما الأدبية الفنية فتهدف إلى تحريك العواطف ولا تكثرث بقضية الإقناع، فإن أنت كانت في السياق ولم تكن مقصودةً بذاتها.

من هنا فإن كتابة البحث التاريخي العلمي تختلف كلياً عن كتابة الرواية التاريخية، لأن الأولى تندرج تحت عنوان الكتابة العلمية، أما الثانية فتقوم على السرد الأدبي للأحداث التاريخية، ومع أن محور الكتابة واحد، هو التاريخ، إلا أن الهدف في الأولى هو تبيان الحقائق التاريخية وتحقيقها وإثباتها، أما الثانية فهدفها التأثير الوجداني في نفس المتلقي، بغض النظر عن الأحداث المسرودة، التي يمكن أن يتدخل عنصر الخيال في بعض تفاصيلها.

لكن نظرة عامة في أسس كتابة البحث العلمي التاريخي الحسيني، تجعلنا ندرك أن هناك ثمة مدخلٍ يفتح على كتابة الأدب التاريخي الحسيني عمومًا والرواية التاريخية الحسينية خصوصًا، والتي سنقوم هنا باستحضار تعريف أولي لها.

إن الرواية الحسينية هي مصطلحٌ حديث البروز إلى واقعنا الأدبي، وقد كان لي كباحثة وروائية شرف طرحه للمرة الأولى في العام ٢٠١٦ من خلال مقالي في مجلة الإصلاح الحسيني، ومجلة نور الإسلام، بعنوان: «الرواية الحسينية بين الإبداع الفني وروحانية المثال»، ثم كان لي شرف وضع أسس لهذا المصطلح ولهذا الفن الرفيع من خلال عدد من الروايات الحسينية، والأبحاث النقدية والمحاضرات منها: «القصة والرواية الحسينية، بين السيرة الحسينية والمسيرة الأربعينية»، وهو عنوان بحثي المقدم لمؤتمر الأربعين السابع، في مركز كربلاء للدراسات، العتبة الحسينية المقدسة، أي قبل عامين من الآن.

يمكننا بدءًا تعريف الرواية الحسينية بأنها «روايةٌ فنيّةٌ تخضع لمعايير الرواية العالمية، وتسير وفق ضوابطها، وتحتكم إلى عناصرها الفنيّة المعروفة مضمونًا وأسلوبًا، ولكنها تتخذ من الحسين (عليه السلام) محورًا لها، على صعيد المضمون تحديداً، أما الأسلوب فهو يعود إلى مرتكزاتٍ عديدة، تم عرضها في البحوث السابقة.»

نعود إلى موضوع بحثنا، حيث نجد أن هناك إمكانيةً للتوفيق بين الكتابتين والنمطين، التاريخي البحثي والروائي الأدبي، حينما يكون الهدف واحدًا. ولا بد لفهم هذه الفكرة من رصد أسس كتابة كلٍّ من البحث التاريخي والرواية التاريخية، والتعرف على القواسم المشتركة إن وجدت، وكيفية الدمج بينهما.

أولاً: البحث العلمي التاريخي:

البحث التاريخي هو بحثٌ علميٌّ بالدرجة الأولى، ولكي نستكمل التعرّف على هذا النمط الكتابي، لا بد لنا من تتبع عناصره ووضوابطه، لنقوم بمقارنتها مع عناصر ووضوابط الرواية التاريخية.

أ. عناصر البحث التاريخي:

١. عنوان البحث: يجب أن يكون العنوان دقيقاً وواضحاً ويعكس محتوى البحث.
٢. المقدمة: يجب أن تقدم فكرة عامة عن الموضوع التاريخي، فتوضح أهمية البحث، والأهداف التي يسعى لتحقيقها، والإشكاليات التي يتناولها، وتعرض السياق الزمني والمكاني للأحداث التاريخية.
٣. مشكلة البحث: صياغة السؤال الأساسي الذي يدور حوله البحث، من المهم أن تكون المشكلة محددة ومركّزة، مما يساعد في توجيه البحث.
٤. أهداف البحث: ما الذي يسعى الباحث لتحقيقه؟ يجب أن تتضمن فهماً أعمق للأحداث التاريخية وتفسيراً لأسبابها ونتائجها.
٥. الإطار النظري والدراسات السابقة: مراجعة الأدبيات والدراسات السابقة حول الموضوع. مع تقديم نظريات وتفسيرات سابقة تتعلق بالفترة التاريخية المدروسة، والإشارة إلى الفجوات التي يهدف البحث إلى ملئها.

٦. منهجية البحث: تحديد المناهج المستخدمة في تحليل المصادر التاريخية (مثل المنهج التحليلي، المقارن، أو الوصفي).

٧. تحليل المصادر التاريخية: تقوم على جمع البيانات من المصادر المختلفة مثل الكتب، المقالات، الأرشيفات، والمقابلات، مع تحليل المصادر التي تعتمد تحليل النصوص وتفسير الأحداث استنادًا إلى الأدلة، بالإضافة إلى التحليل النقدي للمصادر، ومراعاة المصدقية والموضوعية.

٨. النتائج: عرض النتائج التي توصل إليها البحث بناءً على تحليل المصادر، وقد تتضمن هذه النتائج فهماً جديداً حول أحداث تاريخية معينة أو تفسيراً مختلفاً للأسباب والنتائج.

٩. المناقشة: تفسير النتائج وربطها بالظروف التاريخية الأخرى، ومقارنة النتائج مع دراسات سابقة وتقديم مقترحات لتفسير الأحداث.

١٠. الخاتمة: وتقوم على تلخيص أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وتقديم توصيات أو أفكار مستقبلية للبحث في مجالات تاريخية مشابهة.

١١. قائمة المراجع: حيث يتم توثيق جميع المصادر التي تم الاعتماد عليها في البحث، سواء كانت أولية (مخطوطات، وثائق) أو ثانوية (كتب، مقالات، دراسات).

ب- ضوابط البحث التاريخي:

١. الأصالة: يجب أن يكون البحث جديداً أو يقدم إضافة علمية لفهم الأحداث التاريخية.

٢. التحليل النقدي للمصادر: من الضوابط المهمة في البحث التاريخي هو التأكد من دقة وصحة المصادر، حيث يجب أن يتم التعامل مع الوثائق والمصادر بحذر وتحليلها بعناية.

٣. التحقيق في السياق الزمني والمكاني: يجب أن يتم فهم السياق الذي وقعت فيه الأحداث بشكل صحيح، ومراعاة العوامل الاقتصادية، الاجتماعية، والسياسية

التي كانت تؤثر على تلك الفترة الزمنية.

٤. الحياد والموضوعية: يجب أن يكون الباحث محايداً عند دراسة الأحداث، وألا يتأثر بمواقف شخصية أو انحيازات، كما يجب أن يُحلل الأحداث بشكل موضوعي دون التأثير بآراء أو توجهات معينة.
 ٥. التوثيق السليم: من الضوابط الهامة في البحث التاريخي توثيق المصادر بدقة، باستخدام أساليب توثيق علمية معتمدة، فإن التوثيق الدقيق للوثائق التاريخية يعزز مصداقية البحث.
 ٦. المصداقية: يجب أن يعتمد الباحث على مصادر موثوقة فقط. في بعض الأحيان، قد تحتوي المصادر التاريخية القديمة على تحريفات أو انحيازات، مما يتطلب من الباحث التحقق من صحتها.
 ٧. التسلسل الزمني: يجب أن يكون البحث مرتباً ومُنظماً حسب التسلسل الزمني للأحداث أو حسب الموضوعات، وذلك لتسهيل فهم التطورات التاريخية.
 ٨. التنوع في المصادر: يجب على الباحث الاعتماد على مجموعات متنوعة من المصادر (مكتوبة، شفوية، مرئية...) للحصول على رؤية شاملة ومتوازنة.
 ٩. الاستدلال العقلي والتفسير التاريخي: يجب أن يتم توظيف الاستدلال العقلي عند تفسير الأحداث، وفهم العلاقات بين السبب والنتيجة في سياق تاريخي معين.
 ١٠. الأخلاقيات البحثية: احترام حقوق الأشخاص والمؤسسات عند استخدام البيانات التاريخية، مع الحفاظ على الحقوق الأدبية للمؤلفين والباحثين الذين تم الاستفادة من أعمالهم. باتباع هذه العناصر والضوابط، يمكن إعداد بحث تاريخي قوي وموثوق يساعد في فهم الماضي وتفسيره بشكل دقيق.
- هذا فيما يتعلق بالبحث التاريخي.
- تابع الآن بعرض العناصر والضوابط الخاصة بالرواية التاريخية، لنتمكن من المقارنة بينهما.

ثانياً : عناصر وضوابط الرواية التاريخية :

إن الرواية التاريخية هي نوع من الأدب السردي الذي يمزج بين الحقائق التاريخية والخيال الأدبي، وتقوم بإعادة تصوير فترة زمنية ماضية، غالباً من خلال شخصيات وأحداث حقيقية أو مستوحاة من الواقع. ولكي تكون الرواية التاريخية ناجحة ومؤثرة، لا بد أن تتوافر فيها عناصر وضوابط معينة.

أ- عناصر الرواية التاريخية :

١. الزمان والمكان التاريخي: يجب أن تدور أحداث الرواية في فترة زمنية تاريخية محددة، ويتم تصوير المكان بما يتناسب مع تلك الحقبة.
٢. الشخصيات: يمكن أن تكون شخصيات حقيقية (مثل القادة أو العلماء أو الثوار) أو خيالية، لكن يجب أن تتصرف بما يتلاءم مع الواقع التاريخي.
٣. الحدث التاريخي المحوري: تتناول الرواية عادة حدثاً مهماً مثل معركة، ثورة، سقوط دولة، أو فترة انتقالية، وتقوم بتقديمه ضمن سياق قصصي.
٤. السرد والحبكة: تُستخدم تقنيات السرد المعروفة (وصف، حوار، استرجاع، إلخ) لربط الوقائع التاريخية بخط درامي مشوق.
٥. اللغة والأسلوب: يجب أن تكون اللغة مناسبة للزمن الذي تدور فيه الأحداث، دون أن تفقد قدرتها على التواصل مع القارئ المعاصر.
٦. التوثيق التاريخي: الاعتماد على مصادر تاريخية موثوقة يُعزز من مصداقية الرواية، حتى وإن تم تطويع الأحداث لخدمة الخيال الأدبي.

ب- ضوابط الرواية التاريخية :

١. الصدق التاريخي: يجب احترام الحقائق الكبرى وعدم تحريف الوقائع الأساسية، حتى لو تم تخيل بعض التفاصيل الصغيرة.
 ٢. عدم الإساءة إلى الشخصيات الحقيقية: خصوصاً الرموز الوطنية أو الدينية، حيث يُفترض التعامل معها بأدب ومسؤولية، حتى إن تم نقدها.
 ٣. مراعاة السياق الثقافي والاجتماعي: يجب أن يُراعى تصوير الحياة والعادات والتقاليد كما كانت فعلاً في تلك الفترة.
 ٤. عدم فرض رؤية معاصرة على الماضي: تجنب الحكم على الماضي من خلال مفاهيم الحاضر، بل يجب محاولة فهمه ضمن سياقه.
 ٥. التوازن بين الخيال والواقع: لا ينبغي أن يطغى الخيال على الحدث التاريخي حتى لا تتحول الرواية إلى خيال محض يفقد قيمته الوثائقية.
 ٦. التحذير من التزييف الأيديولوجي: يجب الابتعاد عن توظيف الرواية لتبرير مواقف أيديولوجية على حساب الحقيقة التاريخية.
- إن العناصر والضوابط التي أوردناها بخصوص البحث التاريخي من جهة، والرواية التاريخية من جهةٍ أخرى، هي عناصر وضوابط عامة، ولكي تتمكن من وضع رؤية متوازنة لدمج هذين النمطين فإن من الضروري أن نلاحظ القواسم المشتركة بينهما، ولذا فإن علينا أن نقوم برصد ما أسلفناه بنظرة شمولية دقيقة، ومقارنتها معاً، وبما أن هدف هذا البحث هو تبيان إمكانية التداخل الحاصل بين البحث التاريخي والرواية التاريخية الحسينية، فإن علينا إسقاط مقومات البحث التاريخي على مقومات الرواية التاريخية وليس العكس.

١. إن عناصر الرواية التاريخية كما أوضحنا تبدأ بزمانٍ ومكانٍ تاريخيين محددين، ولكونها حسينية فإنه ينبغي أن يكون لهذين الزمانين والمكانين موقعاً في التاريخ الحسيني، وهذا لا يتنافى مطلقاً مع واقع البحث التاريخي المرتكز على دراسة موضوعية دقيقة لهذين العنصرين.

٢. إن شخصيات الرواية التاريخية قد تكون حقيقية أو خيالية مع مراعاة تلاؤمها مع الواقع التاريخي، بينما هي في البحث التاريخي شخصيات حقيقية، وهذا ما يتناسب تماماً مع الرواية الحسينية التي تعتمد على شخصيات تاريخية حقيقية حسينية (الحسين عليه السلام أو أصحابه أو أعداؤه أو مريديه)، مع إمكانية استقدام شخصيات خيالية لا تشكل محوراً في الرواية، بل تهدف إلى توضيح فكرة معينة، ومعلوم أن مثل هذه الشخصيات لا تكون رئيسية بل ثانوية في الرواية، وقد يتنافى وجودها مع البحث التاريخي ولكنه حتماً لا يتنافى مع مقتضيات الرواية.

٣. إن الحدث التاريخي المحوري الذي تتمحور حوله الرواية التاريخية، كقيام ثورة أو سقوط دولة أو غير ذلك، هو حاضرٌ بقوة في الرواية الحسينية، التي تتمحور حول واقعة كربلاء، أو حول بعض الوقائع المرتبطة بها كالثورات التي أعقبتها أو ظروف حياة الأئمة المعصومين الذين ارتكزت سيرهم على إحياء النهضة الحسينية بكل سبيل، ومن ثم إحياء الدين المحمدي الحسيني الحنيف. وهذا الحدث بالذات يتناسب تماماً مع ظروف البحث التاريخي، طالما أنه يتم نقله بدقة ودون تحريف. أما في الرواية الأربعينية فهو أيضاً حاضر، لأنه إسقاط لحالة العشق الحسيني الذي يدفع البشر باختلاف مشاربهم ومذاهبهم وفئاتهم وألوانهم وأعمارهم... للمسير نحو كربلاء الحسين...

٤. إن السرد والحبكة التي تستخدم تقنيات السرد المعروفة (وصف، حوار، استرجاع، إلخ) لربط الوقائع التاريخية بخط درامي مشوق، هي حاضرةٌ بقوة في الرواية الحسينية، حيث يمكن استخدام هذه التقنيات بكفاءة عالية لسرد وقائع

الرواية من أحداث معركة كربلاء، إلى أحداث حياة الشخصيات الحقيقية الأخرى المرافقة، سواء كانت ذات ارتباطٍ زمني قريب أو بعيدٍ عن النهضة الحسينية، باعتبار أن هذه النهضة هي جوهر الرواية ومحورها الأساس، ومن الطبيعي طالما أن السرد لا يخلّ بواقعية الأحداث، أن لا يتنافى من البحث التاريخي المتعلّق بهذه الأحداث نفسها، بل أن يوطئ له ويتقاطع معه في أهدافه.

٥. إن اللغة والأسلوب المناسبين للزمن الذي تدور فيه الأحداث، هما الوسيلة التي يتوسلها الكاتب لتوصيل فكرته وسرد أحداث الرواية التاريخية عموماً والحسينية خصوصاً للقارئ المعاصر، وبالتالي فإنّ عليهما أن يحملا هوية الماضي ولكن بسياقٍ يمكنهما من التواصل مع الحاضر، وبما أن الرواية عمل فني، فاللغة والأسلوب هنا ينبغي أن يكونا أدبيين يتوازن فيهما الأسلوب الخبري والإنشائي، وقد يتدخّل عامل الصناعة اللفظية والمعنوية فيهما أحياناً، ولعل هذه النقطة بالذات هي أبرز ما يتعارض فيه البحث التاريخي مع الرواية التاريخية، لأن لغة البحث التاريخي كما أسلفنا لغة علمية بعيدة عن الصياغة الفنية.

٦. إن التوثيق التاريخي والاعتماد على مصادر تاريخية موثوقة يُعززان من مصداقية الرواية، حتى وإن تمّ تطويع الأحداث لخدمة الخيال الأدبي كما أسلفنا، وبما أن الرواية الحسينية لا تركز على الخيال إلى في بعض التفاصيل غير الأساسية أحياناً، فإن عنصر التوثيق فيها ممكن، مما يرفع من علميتها وإمكانية تحقيق الأحداث التاريخية المعتمدة فيها، وهنا يفترض بالكاتب أن يركز على المصادر المعتبرة، وأن يهمل المصادر الضعيفة، وهنا يتقاطع في وسائله مع الباحث التاريخي، وبهذا تكتسب روايته بعداً تاريخياً وعمقاً إنسانياً يزيد من قيمتها الفكرية والفنية معاً، أما في حالة الرواية الأربعينية، فلعل التوثيق التاريخي هو باعتماد المشاهدات الحضورية، التي ينقلها الكاتب مباشرةً من الأرض إلى النص، بسردٍ قصصيٍّ مشوق، لكنه دقيقٌ وواضح.

٧. إن الصدق التاريخي هو من أهم ضوابط الرواية التاريخية ذات القيمة الإنسانية، وحرِّيُّ به أن يكون الأهم في سياق الرواية الحسينية، وبما أن الرواية الحسينية بموضوعاتها وأحداثها تتسم بالعمق الإنساني والقوة التاريخية التي تشكّل عاملاً أساساً في تكوين النهضة الحسينية لا الرواية الحسينية فحسب، فإنه من الطبيعي أن لا تعتمد الرواية إلى تقوية موضوعها مثلاً بتوسّل الأساليب التاريخية المتوتية، كما هو حال بعض الروايات التاريخية التي قد تحتاج ذلك لضعف موضوعها الأساس، وهذا ما يجعل الرواية الحسينية تتسم بالصدق التاريخي بشكلٍ تلقائي، وعلى الكاتب أن يحاول إبراز هذا الصدق ما وسعه في روايته، باعتماد المصادر الدقيقة المعتمدة، مما يعطي روايته الوزن الإنساني الذي يجدر بها أن تحمله، بحسب مقتضى عنوانها الإنساني الكبير، وتصديها لقضية عظيمة استثنائية كقضية الإمام الحسين عليه السلام.

٨. إن هذا الصدق هو الذي يكرس مصداقية الرواية الحسينية، كسردٍ قصصي واقعي وحقيقي يعكس صورة الحدث الحسيني، لا من خلال سرد الأحداث فحسب، بل من خلال بناء الشخصيات أيضاً... ولئن كان العنصر العاطفي بارزاً أيضاً في الرواية الحسينية، فهو يأتي في سياق السرد القصصي، ولا يؤثر على مصداقية الحدث، مما يؤكد على انسجام هذه المصداقية مع أهداف البحث التاريخي. وتأتي الاستعاضة بسرد المشاهدات في الرواية الأربعة، عن ذكر المصادر، لأن الحدث في الزمن الحاضر.

٩. إن التوازن الذي تفترضه الرواية التاريخية بين الخيال والواقع وبين الماضي والحاضر هو أمرٌ حاصلٌ تلقائياً في الرواية الحسينية، لأن الخيال فيها نصيبه ضئيل، والحاضر فيها هو مرآة الماضي وبالتالي فإنه يعكسه بمقدار ما هو منسجمٌ معه منبثقٌ منه، ولهذا فإن الرواية الحسينية تتوافق مع البحث التاريخي في هذا الجانب، أما الرواية الأربعة فهي من الحاضر وإليه، ولذا فالأمر هنا حاصل تلقائياً.

١٠. إن مصداقية الرواية الحسينية تنطلق من اعتمادها على الحقائق التاريخية الموثوقة،

ولهذا فهي لا تتوسل التزييف الأيديولوجي للتأثير في القارئ، بل إن مجرد السرد التاريخي للأحداث يمكن أن يعطي من التأثير ما لا تفعله التقنيات السردية الفنية، ذلك أن الحدث الحسيني يتضمن كماً هائلاً من الحشد العاطفي الذي ينبعث تلقائياً منه، وبنفس الصدقية التاريخية المعتمدة، ولعل هذا من أبرز عوامل الالتقاء بين الرواية والبحث في حقل الأدب الحسيني، وكذا حال الأدب الأربعيني.

تجدر الإشارة هنا إلى أن مجرد الحديث عن المصادر التاريخية للأحداث يتضمن الكثير من التناقضات التي تحتاج للتحقيق من قبل الباحثين، وبما أن الحدث الحسيني بالذات كان موضع تعميم تاريخي من قبل السلطات الحاكمة على مدى قرون، فقد استطاع هذا الحدث الوصول إلينا بصعوبة، ونحن اليوم لا يمكننا الجزم بصدقته إلا من خلال المقارنة والتحليل والعرض على المنطق السليم والأحداث التاريخية التي عاصرتة، والروايات المعتمدة والمصادر التي نحاول قدر الإمكان اختيارها بموضوعية، ولذا فإن المصدقية في كل ذلك نسبية، ولئن كان فيها ما يطمئن إليه قارئ ما ذو خلفية معرفية حرة، فإن قارئاً آخر متحيزاً للجهة المعاكسة يمكن أن يطعن في مصداقيتها، ويبقى العمل الموضوعي الخالي من التحيز لفئة دون أخرى بوجود الأدلة التاريخية الثابتة، هو العمل الفني الذي يعبر بشكل صحيح عن الحدث الحسيني.

إن الموضوعية عموماً ليست من صفات الرواية الفنية، لكن الرواية الحسينية والرواية الأربعينية تستطيع أن تدعي إمكانية اتصافها بالموضوعية النسبية، من حيث امتلاكها للمصدقية التاريخية المرتكزة على الأحداث الصحيحة المعتمدة، والمصادر الموثوقة، أما طريقة التعبير فلا مفر من الفنية والعاطفية واللغة الأدبية الشعرية التي تعدّ وسيلة التعبير الأمثل للرواية الفنية.

المبحث الثاني

الرواية الأربيعينية بين العمل الفني والبحث التاريخي

بعدما قمنا في المبحث السابق بعرض عناصر وضوابط كل من البحث التاريخي والرواية التاريخية، وبعدما قمنا برصد نقاط التقاطع بينهما من خلال إسقاط عناصر وضوابط البحث التاريخي على الرواية التاريخية عموماً والحسينية خصوصاً، نتقل في هذا المبحث إلى الحديث عن الرواية الأربيعينية، التي هي فرعٌ من فروع الرواية الحسينية، والنظر في مدى تداخل العناصر البحثية في تفاصيلها.

والرواية عموماً هي «ليست مجرد سرد الحوادث أو الشخصيات، إنما هي قبل ذلك الأسلوب الفني، أو طريقة العرض التي ترتب الحوادث في مواضعها وتحرك الشخصيات في مجالها، بحيث يشعر القارئ أن هذه حياةٌ حقيقيةٌ تجري، وحوادث حقيقيةٌ تقع، وشخصياتٌ حقيقيةٌ تعيش» (سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه (الإصدار الثامن)، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ص. ٨٨). أما الرواية الحسينية فهي نقلٌ أدبي، وحديثٌ فني، لحياةٍ حقيقيةٍ جرت وحوادثٍ حقيقيةٍ وقعت وشخصياتٍ حقيقيةٍ عاشت... فحري بها أن تتصدر رأس قائمة الروايات الحقيقية، التاريخية إن كان الزمان هو الماضي، والعصرية إن كان الزمان هو الحاضر، كما هو الحال بالنسبة للرواية الأربيعينية التي تسرد وقائع حياة الزوار والخدام وكل متعلقات الزيارة الأربيعينية للإمام الحسين (عليه السلام).

وبما أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية تعيش في هذا العصر «فوضى اجتماعية وقيمية عارمة، جعلت الناس يقعون فريسةً لشعورٍ حادٍّ بالدونية الحضارية، مزوجٍ بإرباكٍ ذاتيٍّ أثقل حركة أيامهم ونغص عليهم صفاء أحلامهم، وقوى لديهم الحاجة

إلى بطلٍ يتماهون به في لحظات يأسهم العامّ» (عبد الدائم السلامي، كنائس النقد (الإصدار الأول)، ٢٠١٧، ص. ٨٤)... فإن الرواية الحسينية قد سدّت هذه الثغرة عبر طرح عدد كبيرٍ من الشخصيات الحقيقية التي تتصف بكل صفات البطولة والنبيل والسمو الإنساني، وعلى رأسها سيد الشهداء (عليه السلام)، وحرّي أيضًا بالرواية الأربعينية أن تطرح هذه الشخصيات أو امتدادها في العصر الحاضر، من المقتدين بها والسائرين على نهجها، حيث تبرز الصفات البطولية الحقيقية كأجلى ما تكون، وتكون هي الأجدر في سدّ الثغرة الاجتماعية المذكورة، ومعها لا يشعر الناس بالدونية الحضارية مطلقاً، بل هم يتماهون مع أرقى أنواع الحضارة.

مهما تحدّثنا في موضوع التمازج الحاصل بين الرواية والبحث التاريخي، فإن دراسة النماذج التي سنذكرها هو الأجدى، لكونها شواهد حية على ما طرحنا من شواهد وأدلة عملية على إمكانية هذا الدمج الفكري والحضاري.

إذاً فنحن في هذا المبحث نقارب الرواية الأربعينية متجسّدةً في نموذجين، هما «١٤٥٢ عموداً» للكاتبة زهراء حسام الشهريلي و«غيرتها الشمس» للكاتبة لبنى مجيد الشيخ زيني، وهما روايتين صدرتا حديثاً عن دار الولاء لصناعة النشر - بيروت، ضمن مشروعٍ لتوثيق الزيارة الأربعينية عبر الرواية الحسينية، باسم «يا أم سعيدٍ زوريه» وارتباطها الوثيق بالرواية الحسينية، فكرةً ومضموناً.

والمشروع بحسب النبذة التعريفية له، والتي تتصدر كل إصداراته، هو «مشروعٌ توثيقيٌّ، لطريق زيارة الأربعين يعمل على تقديم صور واقعية من طريق (يا حسين) ذات قيم عميقة مستقاة من نهضة الإمام الحسين (عليه السلام)، ويسلط الضوء على مشروعية الزيارة انطلاقاً من وصايا الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) لأمّ سعيد الأحمسيّة.

فقد رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَعِيدِ الْأَحْمَسِيِّ أَنهَا قَالَتْ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا أُمَّ سَعِيدِ، تَزُورِينَ قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: يَا أُمَّ سَعِيدِ زُورِيهِ، فَإِنَّ زِيَارَةَ الْحُسَيْنِ وَاجِبَةٌ عَلَى الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

كما أنَّ المشروع يسعى لتجذير المبادئ الحسينية في القلوب بأسلوبٍ أدبيٍّ بما يتوافق ومقتضيات العصر. (١٤٥٢ عموداً، زهراء الشهرلي، دار الولاية، ٢٠٢٣ ص ٧).

بهذه الكلمات عرّفت الكاتبات مشروعهن الحسينية، ومنها نطلق لننظر في تفاصيل الروايات الثلاثة، عسانا نجد فيها الشاهد المطلوب على الدمج الفكري للرواية بالبحث التاريخي كما أسلفنا.

وقد تمَّ اختيار هذه الروايات تحديداً لكونها باكورة المشروع المذكور، وقد حُطَّت بأقلامٍ نسائية، لتعكس رؤية المرأة العراقية لمسيرة الأربعين، من خلال السرد الروائي الذي يحكي تلك المسيرة على طريق المشاية، بطرقٍ مختلفة، مجسداً أحداثاً وشخصيات ووقائع حقيقية عاشتها الراوية للحكاية وكانت لها معها مواقف سجّلتها بعين القلب والعقل والروح.

أولاً: رواية «١٤٥٢ عموداً» للكاتبة زهراء حسام الشهرلي:

نعمد في دراسة مضمون الرواية على استعراض العناصر الرئيسة التي تقوم عليها الرواية، وهي على الشكل الآتي:

١. العنوان:

تطلَّ علينا الرواية بعنوانها «١٤٥٢ عموداً» الذي يعبر عن رحلة المشي الأربعيني من النجف إلى كربلاء على طريق «يا حسين» في أيام الأربعين.

وطريق «يا حسين» هو أحد الطرق المؤدية إلى كربلاء، للمنطلق من النجف الأشرف، وهو ليس الطريق الوحيد، لكن المشاهدات والأحداث التي تمتد على جانبه تكاد تكون مشتركة مع الطرق الأخرى التي تمتد من المحافظات الأخرى إلى كربلاء، والتي ذكرت بعضها الرواية الأخرى، طريق بغداد- كربلاء وطريق الحلة- كربلاء وغيرها..

«١٤٥٢» عموداً هو عنوان الرواية، وهو أحد عناوين طريق يا حسين، وللرواية معه حكاية أخرى، ففصولها معنونة بأرقام الأعمدة المميزة وأحداثها، ولذا فإن العنوان يحكي القصة بتفاصيلها، ويؤرخ للأجيال القادمة عدد الأعمدة وما ترمز إليه وما يقع عندها من أحداث، في مسيرة الأربعين للعام ١٤٤٤هـ.

العنوان رمزي، يصلح لرواية حسينية أربعينية، ويصلح كذلك كعنوانٍ صريح لفقرة تاريخية بحثية تتحدث عن عدد الأعمدة على طريق يا حسين ودلالات هذا العدد.

٢. المكان والزمان:

مكان وزمان الرواية بارز في مطلعها، في الفصل الأول «قاصداً مشهدك» المقتبس عنوانه من أحد مقاطع الزيارة، من خلال قول الكاتبة «جلست على طاولتي، كتبي مصفوفة أمامي... لأكتب أهم احتياجات السفر، سفر الأربعين الذي سيكون خالياً من أم مزهر... أنا وغيري بحاجة إلى هذا الطريق...» (١٤٥٢ عموداً، ص ١٤ و ١٥) إنه طريق يا حسين، والزمان هو قبل المشي في الأربعين ومعه... رحلة تؤرخها الأقلام والقلوب، وترجمها الخطوات والحروف.

أما أم مزهر، فامرأة تؤرخ الكاتبة لها، فتقول: «ذات التسع والتسعين سنة وهي تتوكل على عصاها، محزّمة بشريط أخضر يُسمى «العلگ» وهي تقول وتحفّف دمعها بيد مرتعشة: «ما دام زينب تمشي أنه أمشي.»» (ص ١٣)

وللمكان في الرواية حضورٌ قوي ورمزٌ أقوى، وكيف لا يكون والحكاية هي حكاية المشي في طريق الحسين بكلِّ أبعادها، فللشمس لسانٌ وللقمر لسانٌ وللخيمة لسانٌ وللموكب وللطريق وللعמוד...، كلها تحكي وتخطب الزوار وتذكر وتعظ، وكلُّها جزء لا يتجزأ من الحكاية: «بدأت الشمسُ بالأفول، وبدتِ الحمرةُ المغربيةُ، كأنَّ دمَاءَ الرُّؤوسِ المرفوعةِ التصقت بها، كانت ساكنةً مثلَ سكونِ خطى الزَّائرين وهي تتجهِ للصَّلاةِ والرَّاحة... ها هو القمرُ يتربُّعُ في السَّماءِ... أَحِبُّ إطالةَ النَّظْرِ إلى القمرِ في ليالي الأربعين، أتأملُ الحزنَ في جنباته، أسألُ نفسي: كيف يعبرُ عن ألمه، ثمَّ أخاطبُه: مع انطواءِ الأيامِ والعصورِ وتبدُّلِ كُلِّ الأشياءِ تبقى كما أنت، الذي شاهدتَ خطواتِ زينبَ، فليتك تحكي تفاصيلَ ذاكِ الطَّرِيقِ. صمته يؤلمني، أطرُحُ عليه أسئلةً كثيرةً، تبقى إجاباتها معلقةً بين ضوءٍ ودمعة.» (ص ٦١) «هذه المواكب منتظمة كحبات المسبحة، وأعدادها لا أحصيها» (ص ٣٣)

وللزمان حضورٌ قوي كذلك، ورمزيةٌ لا تنكر، «والصبح إذا تنفس، فصباحات الأربعين مختلفة...» (ص ٣٣) «الخدمة الحسينية إحدى محطات العمر... بل أضفناها للفصول الأربعة، فصولنا خمسة، فحركة الرياح وشكل السماء ودرجة الحرارة، وكثافة الغيوم تعتمد على مشاعرنا في شهري العزاء من دون أن نلتفت إلى أننا في أيِّ الفصول نحن، في البردِ والحَرِّ والمطرِ مواكبنا موجودة...» (ص ٣٥).. هنا تبرز شعرية الرواية وموضوعية الحدث، يتداخلان، رغم جموح العاطفة.

وللاسترجاع الزمني كذلك دورٌ كبيرٌ في القصة، وحضوره يترجم معنى الزيارة، فكلُّ ما تحتويه طريق «يا حسين» يشير إلى رحلة سبي زينب (عليها السلام) ويفوح بمرارتها؛ «كان بكاءُ الأطفال يملأُ أذنيها، وكلُّ واحد منهم يصرخ: أين أبي؟ فكانت تواجههُ

كُلَّ ذلك بصبرٍ وعزّةٍ نفسٍ وصلاةٍ ليلٍ، وعباءةٍ واسعةٍ بلا حَدٍّ، كانت خيمةً لهم.» (ص ٤٣) «يرافق صوتَ القافلة صوتُ حركةِ السّلاسلِ الحديديةِ المعقودة على رقبة من يؤدّي دور الإمام زين العابدين (عليه السلام)، وضعتُ يَدَيَّ على قلبي كأنّي خشيتُ فقدانهُ وأنا لا أكاد أفقهه كيف لم تنطبق السّماء على الأرض وإمامُ الحياةٍ محاطٌ بالسّلاسلِ تفتكُ به وتثقل عليه مع المرض، وجّهتُ وجهي صوبَ المدينةِ للسّلام عليه...

أيها الإمام الأسيّر، سلامٌ على معصميك القُدسيّين، كيف لم يذب حديدُ القيد حُبًّا؟!، كيف لم تحتنقِ الأرض وتلك (الجامعة) تطوّق عُنقك؟!» (ص ٣٩ و ٤٠).

«لماذا أشعرُ بأنّك لا تزالينَ تسيرين في مكانٍ ما هنا، كأنّك بتجددُ ذكرى الطّفّ تعودين إلى الطّريقِ نفسِه، تمهدينَ الأرضَ للأربعين، فتصبينَ الدّمع في العين والنّبَل في الأفئدة والكرم في الأيدي والحرارة في الأرجل والعطّر في التُّراب والرّحابة في كربلاء؛ ليسيرِ الجميعِ معك إلى الحسين (عليه السلام).» (ص ٢٣)؟

٣. الراوي:

الراوي لهذه الرواية هي الكاتبة نفسها، أو هكذا يبدو من سياق القصة، فالضمير الغالب هو المتكلّم، وهي فتاةٌ اسمها «صفا» تروي أحداثاً عاشتها في رحلة الزيارة، وهو راوٍ من داخل الحكيم أي أنه إحدى شخصيات القصة. هذا الوضع للراوي يمكنه من سرد الأحداث التاريخية بأمانة، لأنه شاهدٌ حيٌّ عليها، وهذا لا يعني أن الكاتبة لم تلجأ إلى العودة إلى بعض المصادر في روايتها، خاصةً عندما كان الموضوع يأتي لذكر أمرٍ ديني (علامات المؤمن خمس... «إقبال الأعمال» للسيد ابن طاووس) (ص ١٣)، أو حكمٍ شرعي، أو حديثٍ شريف (روايات الحث على المشي... كتاب «كامل الزيارات» لابن قولويه وكتاب «نور العين في المشي إلى الحسين») (ص ١٤)

٤. الشخصيات:

تتراوح شخصيات الرواية بين رئيسة وثانوية، وأخرى تظهر مرة واحدة في حدث واحد، باعتبار أن الرواية هي سجل أحداث متلاحقة متسلسلة عاشتها «صفا» ودونتها، أما الشخصية الرئيسة فهي نفسها الراوية، والشخصيات الثانوية هي أخوها محمد الذي بلغ سن التكليف حديثاً وأصرَّ على مرافقتها في الرحلة، والذي ضيَّعته عند العمود ١٩ لتلتقي به مجدداً عند العمود ٢٠١، وصديقتها آية التي تلتقي بها عند العمود ٢٥٠، وصديقتها مريم، التي تراسلها وتتحول إلى راوٍ في أحد فصول الرواية «سيدة الخادما»، وشخصيات أخرى كثيرة، كأم مزهر، والمعازيب الذين يتوسلون للزوار كي يمتنوا عليهم بشرف الخدمة، والزوار من كل الأعمار، الذين تروي حكاياتهم، وجارة بيت الإمام التي «تعيش في بيت متواضع، ليس فيه جهاز تسخين الماء (السَّخَّان) ولا غَسَّالة ملابس، ولا مجمِّدة الطَّعام، ولكنها تستقبل عشرات الزَّوار يومياً... إنها تعملُ عملَ عدَّة آلاتٍ حديثة؛ كي يسيرَ أمر خدمتها للزَّوار على خير.» (المصدر السابق، ص ٥٢ و ٥٣) ورهبان وخدام وأصحاب مواكب ومبلِّغون ومبلِّغات و... إلى آخر ما هناك من صنوف البشر الذين يمشون في حلقاتٍ متصلة ومنفصلة متجهين نحو الحسين (عليه السلام).

ولعل من أبرز الشخصيات الثانوية المؤثرة في الرواية الأطفال، فهم حاضرون في جو القصة بلطفهم وبراءتهم ووعيمهم وفطرتهم السليمة، والتي توحى بالكثير، وتذكّر برقية طفلة الحسين الشهيدة: «كُلُّ الأطفالِ يُذكِّروننا بك، كُُلُّ الأطفالِ خدَّامُك، مع كُُلِّ مشاغبتهم وألعابهم وعوالمهم، لكن انظري كيف هم في طريق الأربعين يُقلِّدون الكبار، بل هم كبار، يسابقون آباءهم وأمهاتهم وأصحاب المواكب، يحملون إناءً كبيراً لإطعام الزَّوار، وأكواب القهوة، وأقداح الماء وعُلب المناديل الورقية، ويا لفرحتهم لو أخذنا منهم شيئاً، حينها نكون كأننا أعطيناهم عيديةً أو لعبةً يملكون بها.

يا رقية هؤلاء الصغار الذين يتدّمرون من شيء بسيطٍ ويطلبون من آبائهم حملهم على ظهورهم لو ساروا مسافةً قليلةً من بيتهم إلى السوق، اليوم في هذا الطريق يسرون ويهرولون بكلّ نشاط.

حتى الطفل الذي بدأ لتوّه بخطواته الأولى، يتهادى في مشيته، يأتي به والداه؛ ليخطو في طريق المشاية، لتكتمل خطواته، فتعتاد راحته قدميه على هذا الطريق، لتنتقل حرارة تراه إلى دماء قدميه، فتتحركا من تلقائهما حينما يحين الموعد، وتدق ساعة الأربعين.»

الشخصيات كلها حقيقية، وهي توثق الحدث بقدر ما ترويه، وتقدم الواقع الصرف ممزوجًا بالعاطفة والتفاعل الوجداني... إنها شخصيات روائية وفي نفس الوقت هم أشخاص حاضرون ليسجلوا مواقف للتاريخ.

٥. سير الأحداث - الحكمة :

الرواية هي يوميات زائرة تمشي على طريق «يا حسين»، هكذا نختصر الحكاية، وهي تقتطف من هذه اليوميات أبرز مشاهداتها، وترويها لنا مع الشواهد الدينية والقناعات الفكرية التي تحملها، والخلفية التاريخية التي تشير إليها.

تبدأ من التجهيز للرحلة، الحماس للبدء، الوعي لأهمية الحدث وروحانيته، حشد عاطفي يسبق المسير، وترجمه الخطوات فيما بعد، لا لتنفث العاطفة بل لتشتد احتشادًا مع كل خطوة، وتتصاعد الأحداث مع كل عمودٍ تتخطاه الزائرة، تقاطعها أحداثٌ عادية، كضياح أخيها، لتتحول إلى أحداثٍ غير عادية، بسبب الحشد العاطفي والروحي؛ «لو سألني أحد: ما هي الاحتمالات التي دارت في رأسك عند تضييعك أخاك لقلت: لا شيء، لقد طويتُ كل هذه الأعمدة ولا أزال أطوي وأنا أفكر في تلك الساعة التي

غادرت فيها زينب عليها السلام كربلاء، بعد أفدح مصيبة في الكون، معها نساءً أرامل وأطفالاً أيتام. «(ص ٤٣) وكلقائها بصديقتها، عند العمود ٢٥٠، «عانقتها، والدَّمعُ يَمَلأُ أَمَاقَنَا، إِنَّهُ لَيْسَ دَمْعَ اشْتِيَاقِ صَدِيقَتَيْنِ، وَإِنَّمَا هُوَ دَمْعُ الاِشْتِرَاكِ فِي المِصِيبَةِ، دَمْعُ المِوَاَسَاةِ، وَالفِكرَةُ ذَاتِهَا وَالحِرَارَةُ نَفْسَهَا، دَمْعٌ مِنْ تَذَكُّرِنَ زَيْنَبَ فِي اللِّحْظَةِ ذَاتِهَا؛ لِأَنَّ آيَةَ اعْتَادَتْ عَلَيَّ أَنْ تَسْأَلَ مِثْلَ سؤَالِي: لِمَاذَا أَشْعُرُ بِأَنَّكَ تَسِيرِينَ فِي مَكَانٍ مَا هُنَا...!» (ص ٥١).

كل الأحداث تسير كما لو أنها تمضي بموازاة الركب الحسيني الفاقد الأسير، والحبكة تبدأ من اللحظة الأولى، توقعاً لما يحدث، تماهياً مع كل حركة وسكون، ودوراً في فلك عشق الحسين، ورصد ذلك العشق في الخدمة والزيارة، التي تلخص كل المسيرة الأربعينية من الألف إلى الياء...

والأحداث أيضاً تواكب العقيدة الشيعية التي تذوب في عشق الحسين، وتحاول أن تميظ اللثام عن شبهات وردود، فتأتي في سياق القص ورحلة المشي، ويبرز ذلك في قولها: «كان هناك سؤال يؤرِّق أخي، فهو يسمع من هنا وهناك أننا نحن العراقيين من قتل سيّد الشهداء عليه السلام، فيبحث عن مصدرٍ يرجع إليه؛ ليفهم أكثر، تبسم السيّد وقال له مشيراً إلى الطريق: هؤلاء هم العراقيون، وهم خُدّام الإمام الحسين عليه السلام، أمّا قتلته فراجع في ذلك كتاب: من هم قتلة الحسين؟ للسيّد عليّ الميلاني» (ص ٤٥) وقولها: «نعم، أطول صلاة موحّدة في العالم يقيمها شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهم في طريقهم إلى ولده الدّيبح، فلا يزايد على إسلامهم وتوحيدهم غير خوّانٍ أئيم؟» (ص ٥٠).

كل هذه الأحداث تاريخ، تسجلها الراوية للأجيال ليعرفوا كيف هو المسير إلى الحسين، وما هي ظروفه وحيثياته، ولا تبخل عليهم بالنظرة الشاملة نحو الماضي القريب أيضاً، فتدوّن فيما تدوّن جرائم النظام البعثي بحق زوار الأربعين:

«كَانَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْأَسْوَدِ يُقَطِّعُ الشَّوْقَ نِيَاطَ قُلُوبِهِمْ لِرُؤْيَا كَرْبَلَاءَ وَلِزِيَارَةِ الْأَرْبَعِينَ، فَيَخْرُجُونَ لَيْلًا، وَيَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ الزَّرَاعِيَّ، أَوْ مَا يُسَمَّى (طَرِيقَ الْعُلَمَاءِ) لِلْمَشْيِ إِلَى كَرْبَلَاءَ، الْأَعْدَادُ الْكَثِيرَةُ مِنَ النَّاسِ حَالِيًّا تَسِيرُ فِيهِ، إِنَّهُ مَكَانٌ مَلِيٌّ بِبَسَاتِينِ النَّخِيلِ وَالْحُضْرَةِ وَعَيُونِ الْمَاءِ، يُجَازِيهِ نَهْرُ الْفِرَاتِ، نَسَائِمُهُ عَذْبَةٌ.

فَإِذَا أَحَافَهُمْ صَوْتُ مَا أَوْ شَعَرُوا بِمِرَاقِبَةٍ أَحَدِهِمْ، سَارَعُوا فِي الْإِخْتِبَاءِ وَسَطَ الْعَشْبِ الطَّوِيلِ، وَخَلَفَ الْأَشْجَارَ.

وَقَدْ نَصَبَ بَعْضُ الْبَعْثِيَّةِ سَيْطَرَةً لِإِقَافِ الزَّوَارِ، وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ وَبَعْدَ مَرُورِ عَدَدٍ مِنَ الْمَشَايَةِ أَوْ قَفَّهُمْ هَذَا الْبَعْثِيُّ ذُو اللِّسَانِ الْبَذِيءِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ حَتَّى أَمْسَكَ بِزَائِرٍ كَبِيرٍ فِي السَّنِّ وَرَمَاهُ فِي نَهْرِ الْفِرَاتِ!» (ص ٧٤ و ٧٥)

وتستثمر الراوية كل المشاهدات لتقدّم الفكرة، مشاهداتٌ حقيقية حصلت معها، أو أخبرها بها كتابٌ ما، ومنها حضور التنوع الديني في هذه المسيرة المحتشدة، وهي لا تكتفي بسر دما رأته، بل تخرج منه إلى سرد ما عرفت، ثم بخلاصة ذلك كله، وعلاقته بعالمية المسيرة وصاحبها... «فاجأتني آية: صفا انظري، هل هذا صليب؟!»

- أين؟

إنّه رجلٌ بشبابٍ غريبةٍ عن ثيابنا، سوداءً بأشرطةٍ حمراءٍ تلتفتُ على وسطه وعلى قبعة رأسه، يرتدي الصليبَ نعم! وآخرٌ بملابسٍ زرقاءٍ يحملُ عصاً طويلة. إنهم بالقرب من موكبٍ للجنسيّات والأديان المختلفة، فيه مترجمون لكل اللغات. واقفٌ يتأملُ، يلتفتُ يمنةً ويسرةً، تارةً إلى المواكب، وتارةً للمشاية، يُمعن النظرَ في أرجلهم، يحملُ في يده دفترًا يكتب فيه، ثمّ يلقي نظرةً، ويرجعُ ليكتب... إنه يحفظُ ملامحَ الأربعين، كما حفظَ ذاك الرّاهبُ ملامحَ رأسِ أبي عبد الله ﷺ في أحد المنازل

التي مرّ بها الرّكب الزّينبيّ عند مروره بأحد الأديرة في طريقه من العراق إلى الشّام. (ص ٦٥ و ٦٦) «لعلنا نظنُّ أنّ هذا الطّريقَ يأسرنا فقط دونَ غيرنا، يجذبنا ويُلصِقنا به، نُذمِنُ عِطْرَهُ وترابَهُ، كلاً، فأنا أُحِبُّ أن أرى الإمامَ الحسينَ (عليه السلام) بعيون غيرنا، أُحِبُّ أن أرى نورَهُ وهو يتسلَّلُ لِكُلِّ الأفتدة، ويمتدُّ إلى آخر العالم...»

ثم تسرد قصة المصورة الإيطالية العاشقة للحسين، كلوديا بورجا، والتي وصلت إلى هنا وشهدت هذا المشهد العظيم، وهنا تتساءل الراوية: «ما الذي يدعو المسيحيّة والعشرات غيرَها إلى التّقيب عن زينب (عليها السلام)، وأن تبحثَ في روما؛ لتدرس شخصيّتها ومواقفها؟ أليس ذلك؛ لأنّها وجدت فيها صفاتِ المرأةِ الكاملة، القدوة، الخالدة، التي لا يمكنُ أن يكونَ غيرها بديلاً عنها.» (ص ٦٩).

وتتصاعد الأزمة مع قرب الوصول، تتكاتف الفكرة والنبضة والنظرة، والزمان والمكان والحدث، لتحمل الزائرة إلى ذلك الهدف المأمول، ونلاحظ كيف يتأزم الموقف مع قرب البشارة، التي تلوح خلف المنعطف، فعند العمود ١٤٥٢، وهو آخر الأعمدة، تقول الراوية: «إنّه صُبِحُ الأربعين، وصلنا إلى ختام الأعمدة، هذا العمود يبشّرنا بالوصول، إنّه الأقرب إلى الجنّة، لحظة اللّقاء تشغلُ فكرنا، يا ترى كيف سيكون، أتمنّى أنّي عانقتُ القبّة، واتّسعت يداي لأن تُحيطا بالشّباك، أو أمسحَ كَفِّي بِكُلِّ جدران الصّحن.» (ص ٧٩).

وعند الوصول تختصر المسيرة حكاية العمر، وتتجمد اللحظة وتطول، فتودّ أن لا تنتهي أبدا: «تتاول الأعناق، تشخصُ الأبصارُ، ترتفع الأيدي، أين المناراتُ، أين القبّة، شدّت آية على يديّ بقوة، وأخي محمّد رفعَ أطرافَ أصابعِ أقدامه؛ لينظر، أطرقتُ قليلاً تأهباً لتلك اللحظة، هل أرفعُ رأسي الآن أم أنتظرُ، تجرّأتُ فرفعتُه...»

بكلتا يديَّ أباعدُ الدَّمْعَ عن عينيَّ، لا أريدُ أن يحجبَ عني رؤيةَ هذه اللَّحظة، لیت كُلَّ لحظاتي مثلها، لیت كُلَّ يومٍ وشهرٍ وسنةٍ تكونُ نهايتها قُبَّتْكَ، لیت كُلَّ نهاياتي حسيّنةً.» (ص ٨٠).

وتختصر حكاية تداخل الماضي مع الحاضر والمستقبل، لتقوم بمهمة دمج الرواية بالتأريخ: «سنعودُ إلى ديارنا، بينما تبقى مولانا زينب ثلاثة أيامٍ تنوح عليك، ثمَّ تعود إلى المدينة من دونك.

سنعود وينتهي صفر، ونخبئُ ثيابنا السوداء نرُشُّها بالمسك على أمل اللّقاء، نكتب على قدورنا (وقف للحسين) ونضعُها في المخازن، نتعاهد: «الله يُعوِّدكم» والحرارةُ التي في القلوب تشحذُ نفسها؛ لتتوقَّدَ أكثرَ في المحرَّمِ التالي...» (ص ٨٣)

نهاية الرواية هي حلّ عقدها، الوصول إلى الحسين، واستمرارية النهج الحسيني إلى الأبد، وهي تکرّس العقيدة الحسينية التي ترى الكون كله بعين كربلاء، ولكنها مع ذلك لا تخالف الرؤية الموضوعية في كل شيء، لأنها تنقل الحقائق والمشاهدات، بكل أبعادها، ولئن لم يكن في الرواية ذكر للمصادر والأسانيد إلا فيما يتعلّق بالخبر الماضي، فلأنها من بنات الحاضر، والشاهد فيها ليس بغائب.

ثانياً: رواية «غيرتها الشمس» للكاتبة لبنى مجيد الشيخ زيني:

هذه الرواية هي صورة أخرى من صور المسير الأربعيني، تنقلها رؤية أخرى لكنها توأمٌ للرؤية الأولى، فهي تنقل الحدث بنفس الأقلام والعيون النسائية والقلوب والأرواح، مع فارقٍ في التفاصيل، التي تکرّر المشهد الأول وتزيد عليه، وتضفي عليه غنىً معرفياً من نوعٍ جديد، لكنه حتماً يصبّ في نفس المجرى... الطريق إلى الحسين.

ومع اختلاف القصة تختلف العناصر، ربما لتتلاقى في كثيرٍ من دلالاتها، لكن استعراضها يعيننا على فهم تلك الدلالات، ورصد حركة التأريخ فيها، حيث تقوم بدورها في البحث والتوثيق، لتغدو مرجعاً لمعرفة تفاصيل المسيرة الأربعينية، من طريقٍ جديد.

١. العنوان: «غيرتها الشمس»

عنوانٌ رمزيٌّ بامتياز، فهو مستلٌّ من الحديث الشريف للإمام الصادق (عليه السلام)، الذي يتحدث فيه عن زوار قبر الإمام الحسين (عليه السلام) ويدعو لهم: «...فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس...» (بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٩٨، ص ٨)

اختيار العنوان مناسبٌ تمامًا، فالقصة هي عن هؤلاء الذين غيرت وجوههم الشمس على طريق زيارة سيد الشهداء، فلم يباليوا، بل كانت لهم تلك الصفة مكرمة ومفخرة، واقتباس كلماتٍ من حديثٍ شريفٍ موثَّق، هو دورانٌ في فلك تلك الكلمات، التي تبرز شعريتها كعنوانٍ للرواية، ومصداقيتها كجزءٍ من حديثٍ مسندٍ معتبر، قاله أحد أئمة أهل البيت (عليه السلام)، ليؤكد على أهمية هذه الزيارة العظيمة، رغم المشقة والعناء اللذان يحفَّان بكل تفاصيلها.

٢. المكان والزمان:

الزمان والمكان محدَّدان في الرواية، لا شك في ذلك، وهما حاضران بقوة، كما في الرواية السابقة، وهذا أمرٌ طبيعي، فالقصة هي حكاية المسير الأربعيني إلى كربلاء، وبالتالي فالمكان هو طريق الأربعين بكل تفاصيله، والزمان هو فترة ما قبل الزيارة وخلاها، فهما إذاً موجودان ضمن الرواية كأمرٍ تلقائي، كما أن دلالات المكان والزمان تبرز في مواضع عديدة: «ها قد وصلنا إلى الشارع الرئيس؛ طريق مزدحمةً بالزوار من مختلف الجنسيات... حركة السيارات صعبة، أعلامٌ وراياتٌ كبيرةٌ، ومواكب عامرةٌ بالخدم والزوار.

أشعر أن الدنيا كلها هنا... كربلاء هنا، مع أننا نبعد عنها مئات الكيلومترات.»
(ص ٢٥).

وتتكرر أسماء مدن شتى على طريق المسير: «بساتين عفج، قرية الفاضلية، مدينة سومر، الدغارة، صدر الدغارة، الحلة، شارع الطاقة، منطقة الهندية، طويريج، سيطرة أم الهوى...»، مع تحديد المواقع الجغرافية لكلّ منها... إنه توثيق دقيق لكل خطوة، لا يخلو من دلالاتٍ فنية، تجعل القصة تقترب حيناً من البحث التاريخي وتغوص حيناً في أعماق المشاعر التي يستثيرها المسير... والحديث يعطينا فكرةً واضحة عن تعدد دروب المسير إلى كربلاء: سابقاً عند مدخل الديوانية، سلك قسم من الزوار باتجاه مركزها، ثم الشامية نحو النجف ومنها إلى كربلاء، وقسم اتجه إلى الدغارة، ثم صدر الدغارة، مروراً بمدينة القاسم، ومنها عبر الحلة عن طريق طويريج إلى كربلاء.

وقد تنقسم هذه الطرق أحياناً إلى فرعية، ثم تعود لتلتقي في الشارع العام»
(ص ٨٥).

كما أن تفاصيل الأماكن تعطي فكرةً واضحةً توثيقيةً عنها، فهي تصلح لتكون مرجعاً في فهم حديث الزيارة والمسير، وهذا ما يجعل هذه الرواية تميّز بدقتها وموضوعيتها في النقل، لأن عنصر التوثيق الدقيق بارزٌ فيها...

ولا تخفي الأعمدة وأرقامها في هذه الرواية، لكنها ليست بمثل بروزها في الرواية الأولى، على أن تفاصيل الأمكنة هنا بارزة، ولها دلالات عميقة، غالبها يتمحور حول الخدمة... «تتعثر بهم في كل خطوة، فالطريق هنا تتحول لمجالس، حيث وضعت قطع الأثاث من المنازل أمام أبوابها، على حافات طريق الزوار، أطقم أرائك مختلفة، فهم يوسعون مساحة البيت لخدمة الزوار من جهة، ويفسحون المجال ليجلس عليها

الزوار للاستراحة من جهةٍ ثانية؛ أثاثٌ فخم، حاجات بيت عزيزة، بل إني رأيت بيوتًا جديدة، كانت قد بُنيت واكتملت سابقًا، وأصحابها ينتظرون موسم الحسين ليبدأوا بالسكن فيها واستخدامها، وذلك تبرُّكًا بدخول الزوار وخدمتهم قبل انتقالهم إليها.

الطريق في الحلة يتلخّص بالآتي: مواكب متجاورة، وبيوت قريبة من الشارع، كلها مفتوحة للخدمة وتوزيع الطعام!» (ص ٩٠).

أما الزمان في الرواية فهو حاضرٌ بدلالاته المختلفة، وهو توثيقيٌّ حينًا وإيحائي حينًا آخر، كما أن معظم فصول الرواية تبدأ بتوثيقٍ زمني، «إِنَّه الرابع عشر من صفر، أول خروجنا من المنزل.» (المصدر السابق، ص ٢٥) «السَّاعَةُ السَّابِعَةُ صَبَاحًا... أَنْظَرُ إِلَى عَقَارِبِ السَّاعَةِ تَتَحَرَّكُ، أَتَأَمَّلُ فِيهَا خَطَوَاتِ الرَّائِرِينَ، أَفَكَّرُ فِي حَوْرَاءِ، وَأَتَمَنَّى أَنْ تَتَّصَلَ. أَحْتَرَمَ لِحْظَاتِ ذَلِكَ الْمَسِيرِ، حَيْثُ يَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ يَنْسَابُ سَهْلًا فِي ذَلِكَ الْجَوِّ الْمَفْعَمِ بِالْحَيَاةِ.» (ص ٢٧) «إِنَّهَا الثَّلَاثَةُ عَصْرًا.» (ص ٢٩) «عندما تقرب من كربلاء يختلف الأمر، فالليل والنهار لن يكونا مقياسًا لسيرك ومنامك، فأنت تسير ما أمكنك، وتنام ما اضطرت إلى النوم. كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ يَقْظًا عَلَى مَدَارِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً...» (ص ٩٣) بل إن عناوين بعض الفصول هي شواهد زمنية: «البداية... ساعة الغروب... قبل أسبوع... الحلة من الشفق إلى الغسق... الصباح الميمون»... والزمن دائمًا شاهدٌ على تواصل حكاية المسير الأربعيني الذي لم يتوقف أبدًا منذ بدأ، والشاهد ما أتى في مقدمة الرواية على لسان الكاتبة: «أخبرتهم أكثر من مرّة، أن الاقتراب من كربلاء لا يشفي الغليل، بل يزيد الجمرَ لظى، وأني وجدتُ روعي هناك، وكأنها هي منذ نشأتها الأولى تنتمي لذلك العالم وتحنّ إليه.

أَغْمِضُ عَيْنِي... أَفْتَحُهَا...

يتغير إحساسي بالزّمان والمكان كلّما قرّبَ موسمُ الأربعين، وكأنّ روحي تشفّ؛ لترقبَ أخبار السّماء، في انتظار حلول نعمة المّان عليها في التّوفيق للمسير، إلى قبلةٍ ترضاها هذه النّفْس التّائقة للوصال.

يتوقف كلّ شيء ما عدا ذلك. ها هي بوصلة الوجود تُشيرُ إلى كربلاء.

(ص ١٣)

٣. الراوي:

في الرواية تعددُ للرواة، فهناك راوية رئيسة، وزّعت الأدوار على ثلاثة رواة!

الراوية الرئيسة هي كاتبة الرواية على ما يظهر، لأن خطابها للقارئ منذ بداية الرواية كان حقيقياً، ولم تتستر خلف شخصية أخرى، كل ما في الأمر أنها جعلت من صديقاتها الزائرات، حوراء وكوثر وزينب، رواةً لروايتها، فهنّ كنّ على اتصالٍ بها خلال فترة المسير، وكانت كل واحدةٍ تروي مشاهداتها ومشاعرها وما يجري معها من أحداث، وقد قامت الكاتبة بنقلِ أمينٍ موضوعيٍّ لمحدثاتهن، مع صياغةٍ فنية لها في بعض المواقع، مما جعل الرواية أقرب لتوثيق مشاهداتهن، لكن بأسلوبٍ أدبي فني، وهي في بداية الرواية تصف شوقها للزيارة، وتوسلها بأم البنين (ع) لتحقيق طموحها ذلك، ثم تنتقل خلال الرواية لتجعل من رواياتها لسان حالها الناطق، وتروح تسرد على أستهن ما تعيشه بروحها دون جسدها، على أن أملها يتحقق في النهاية، حيث تخبرنا بذلك في أواخر الرواية، ولكنها تكتفي بجعل روايتها سجلاً لمشاهدات صديقاتها فحسب: «بعد التوسل بأم البنين (ع) إلى الله، تهيأت لي الأسباب للزيارة والخدمة، لكنني آليت على نفسي أن أمضي قدماً، في تدوين ما كان يصلني من رسائل صوتية لرفيقاتي، في مشروع التوثيق للزيارة، لا سيما أن وجودي كان في مركز كربلاء، فكنت أتطلع

نحو النجف أترقب مقدم كوثر بأهلها... ونحو طويريج وطريق «يا حسين» الممتد من الجنوب قادمًا بحوراء ومجموعتها، ثم أعود فأترقب طريق بغداد، فقد طال انتظاري لزینب، عزائي أن لزینب ربُّ يحميها...» (ص ١١١).

يسيطر ضمير المتكلم على جو الرواية، والصفحات من ٢٥ إلى ٦٥ تقريباً هي على لسان حوراء، ومن ٧٤ إلى ٨١ على لسان كوثر، ومن ٨٨ إلى ١١٠ تعود حوراء لتسرد، لكنها تتحول إلى ضميرٍ غائبٍ أحياناً، لتستلم الرواية الرئيسة الدفة عنها وتحاورها، أما زینب فبقية الرواية هي مسرحها، من الصفحة ١١٣ حتى الصفحة ١٣٦، حيث تتحول الفصول إلى اثني عشر رسالة، هي ختام الرواية، تنقلها الكاتبة بصيغتها الأصلية، وكأنها هي توثق الحدث على لسان أصحابه، وهنا تبرز موضوعية النقل، وهي طريقة من طرق البحث التأريخي دون شك.

٤. الشخصيات:

بما أن رواة الرواية هم من داخل الحكيم، أي أنهم بعض شخصياتها، وبما أنهم يسردون مشاهداتهم وتفاعلهم معها، فإنهم (أي الكاتبة وحوراء وكوثر وزینب) هم الشخصيات الرئيسة، وبقية الشخصيات ثانوية، تتنوع بين الزوار والمعازيب وأطفالهم، الذين يقومون بمهمة استدراج الزوار إلى البيوت لنيل شرف استضافتهم، وأصحاب المواكب، وحتى أفراد القوى الأمنية المكلفون بحماية الزوار، فإن لهم نصيب من الحديث...

والأطفال في القصة لهم حضورٌ قوي وبارز، إلى جانب كبار السن والعجائز، وبالأخص في الرسائل الاثني عشر التي أتت على لسان زینب في آخر الرواية، فهناك نرى الطفل الحسيني يعيش حالة الخدمة بأبهى معانيها، والعجوز الذي يجر خطواته

بصعوبة فإذا هي على طريق الحسين نشيطة دؤوبة، ويغدو الصغار والكبار مدرسة للإخلاص والتفاني: «فداءً لصوتكم الدافئ، لضجة أقدامكم وعربات أطفالكم، لصوت عكاز كباركم... فداءً لهذا العطر الجميل، لهذه الخدمة الراقية، لهذا الأمان السماوي...» (ص ١١٤) «وقبل أن ألتفت كان هناك صبيان دَعَواني للاستراحة والمبيت في منطقته أبو دشير... قلت لهما: «لقد أرسلكما الله إلي»، فقال أحدهما: «بل إنَّ الله أرسلك إلينا، نخدمك ونطلبُ دعاءك... أنا مصاب بمرض السرطان يا خالتي، فادعي لي بالشفاء، فدعاء المشاية مستجاب... قالها وركض إلى عمله وهو يجمع الزوّار وأوصلني الآخر إلى المبيت وعاد ليأخذ غيري.» (ص ١١٥ و ١١٦) «أحضروا أولادكم إلى هنا، هنا سيتعلمون الفضائل!» (ص ١١٨)، «رجلٌ ستبنيُّ يجمع النفايات من الطريق، وينظفُ المكانَ حول الموكب، ويستمرُّ بعمله لمسافة بعيدة.

لماذا ينظف هذا الرجل الشارع؟! إنه بعيدٌ عن موكبه كثيرًا!!

ما هذا التفاني؟! لماذا لا نفعل ذلك في حياتنا اليومية؟! هو يعمل الآن حبًّا

بالحسين (ص ١١٩)

«تذكرتُ العامَ الماضي: كيف كان أحدُ الأطفالِ يُوزعُ الشربت، ويُصِرُّ عليّ وأنا أشكره بكلِّ العبارات، فلمَّا يئسَ منِّي استوقفني بكلتي يديه، وهو يقول ترغيبًا لي بكلِّ عفوية: «خاله، هذا الشربت ليلة كاملة أجهزه وأعصر فواكه طبيعي»، تذوّقته... كان طبيعيًّا فعلاً! أخذته لأجبرَ خاطره، وكان يدعو لي بالقبول والسلامة، ويسألني الدعاء؛ كان بإمكانه أن يستخدمَ أيَّ نوع من الشربت أو الماء؛ لنكون له ممتنين، فما الذي جعلَ صبيًّا يسهرُ الليلَ؛ ليعصر الفواكه؟! مَنْ رآه؟! مَنْ شجَّعه؟!» (ص ١٢٣ و ١٢٤)...

على أن أحد الأطفال في الرواية كان له موقفٌ خالدٌ حقاً، فقد جاء ذكره على لسان حوراء، فقالت: «وعلى الرغم من كثرة الأطفال المشاركين في الخدمة، فإنني لاحظت هنا في آخر الدغارة أمراً فريداً: كان طفلاً هادئاً يعمل بصمتٍ مع أهله... شيءٌ ما جذبني إليه وأردت توثيقه بصورة، فإذا بهذا الطفل يُخفي وجهه عني، وهو يقول بصوته الطفولي: «نريدها للحسين!». كنايةً عن عدم الرغبة في الظهور خوف الرياء والعجب... كم صدمني هذا الرد، فقلت له في خجل: «أنا أوثقها من أجل الحسين أيضاً». فسكت...

من أين تعلّمت هذا أيها الصغير؟!، متى تجمّع هذا اليقين في قلبك، حتى أخرجهُ سالماً من حُبِّ الدنيا?!.

فعلاً، إنَّ عجائب الدنيا تنتهي، وإنَّ دروسَ طريقِ الحسينِ عليه السَّلام لا تنتهي!..» (ص ٥٨)

الملفت في القصة هنا أن الرواة ينقلون الكثير من الأحداث بلغةٍ توثيقية عالية، فهم يوفرون لكل زائرٍ يأتي بعدهم، ومن أي طريق من طرق المشاية سلك، دليلاً سياحياً يمكنه الركون إليه والاستعانة به، وهم فضلاً عن وصف مشاعرهم وتفصيل زيارتهم الصغيرة والكبيرة، يقومون بنقل الكثير من التفاصيل التي تم كل زائر، فضلاً عن إعطاء صورةٍ شموليةٍ لحالة الزيارة، كما هي: «يزدادُ زخم الزوّار المنتشرين بين النجف وكربلاء، القادمين من مختلف الدّول، يتحدّثون بلغاتٍ شتى ولهجاتٍ مختلفة... يرفع بعضهم أعلام دولهم، بملامحٍ مختلفة، وألوانٍ مختلفة... كلُّ شيءٍ مختلف وكُلُّ شيءٍ مؤتلف، فلا أحد يُصدِّق أنّ بإمكان شخصٍ لا يعرف لغة أهل العراق أن ينزل النجف، ويسير ثلاثة أيام مشياً إلى كربلاء، وهو يرفع علم بلده، الذي لعلك لم تسمع به قبلاً؛ لتكون كل حاجاته مجابة، حتى لكان الجميع يتحدّثون بلغةٍ حسينيةٍ موحّدة.

وأكثر من ذلك، فإنك تُشاهدُ بعضَ الأجانب وهم يشاركون في الخدمة بشكل فرديّ وبشكل رسميّ هذه السنّة، وينصبون المواكب ويخدمون، وكأتمهم سفراءً بلادهم عند الحسين عليه السلام، ثمّ تسمع صوتهم عاليًا: «هلا بزوار أبي علي»... «تفضل يا زائر»... «جاي أبو علي»... وكلّ جمل الخدمة المعهودة، وهو يكرّزها بالعربيّة، ولكن بلهجة قومه، فهو يُدرِكُ معناها في الترحيب دون فهم لغتها... (ص ٦٨ و ٦٩).

٥. سير الأحداث والحبكة :

الرواية هي يوميات ثلاث زائرات يسرن على طريق المشاية من طرقٍ ثلاثةٍ مختلفة، وكأنها الكاتبة تريد أن تجربنا أن كل الدروب تؤدي إلى كربلاء، وأنه مهما كانت الطريق التي يسلكها الزائر فهي في تفاصيلها واحدة، لأن روح الزيارة والخدمة واحدة، والمنطلق والهدف واحد، تمامًا كما هي الحياة الدنيا ممراً للعبور نحو الجنة، كذا هي الزيارة الأربعينية، وقد كان بإمكان الكاتبة أن تجعل من كلّ نصّ قصة منفردة، ولكنها دمجتهم جميعاً في بوتقةٍ واحدةٍ لأنها قصة واحدة بخطواتٍ متشابهة، تختلف في بعض الجزئيات التي لا تغير وحدتها...

والمضي قدماً مع الأحداث يجعلنا نرى صيغة التّاريخ والبحث والتوثيق واضحة، فالكاتبة لا تكتب لتعكس مشاعرها بقدر ما تكتب لتبين فكرة وتوثق موقفاً وتعطي دلالاتٍ لصورٍ حياتية كثيرة تصادف الزائرات أثناء المسير.

الزائرة الأولى، حوراء، تنطلق من مكانٍ ما هناك، على بعد مئات الكيلومترات عن كربلاء... «حتى أن سبعة أيامٍ من السير لا تكفينا كنساءٍ لنصل مشياً من مدينتنا إلى كربلاء...» (ص ٢٥)... ومع أنه كان من المفترض بالكاتبة أن توضح نقطة انطلاق حوراء ليكون التوثيق دقيقاً، لكن مسارها واضحٌ فهي قد انطلقت من الجنوب.. وصلت أولاً إلى مدينة عفج، ثم بعدها إلى الفاضلية، ثم إلى مدينة سومر، فالدغارة... وهكذا

تتصاعد الأحداث مع الانطلاق لتكون سلسلة مترابطة من المشاهدات الحية ذات الدلالات الغنية، وتتفاعل الراوية مع الشخصيات المحيطة التي تلتقي بها، الزوار، أصحاب المواكب، المعازيب، الأطفال... وكالعادة تحضر صور الركب الحسيني أولاً، ثم الركب الزينبي ثانياً، في الأذهان والقلوب، فإذا كل صورة للحاضر تعكس الماضي بكل أبعاده، (ص ٣٧).

روحية الزائر والخدم تبرز بقوة في كل التفاصيل، «هي صعوبة الطريق حيناً، وحرارة الجوّ وازدحام المشاية أحياناً، لكنك ما أن تميل يميناً أو شمالاً حتى تنهل من الخدمة ما تشاء، ويقدر ما يهون علينا ذلك مشقة المسير، يكون قدر ما يُحجّلنا ويوجب علينا الاعتذار.

لقد خطونا خطواتنا الأولى ونحن ننوي السير قربةً إلى الله ومواساةً لآل محمد ﷺ في مصابهم وسبي نسائهم، فإذا بنا نسير مخدومين منعمين آمنين، فتنحني رؤوسنا أسى، ونُشِخُ بوجوهنا وقد ابتلت بدمع غزير...» (ص ٤٩) (هكذا يكون الزائر، أم الخادم، فتلك حكاية أخرى، وهي تحت عنوان «سوق الخدمة»: يراودني أحياناً أن شيئاً ما أصاب رؤوس هؤلاء الناس، أصحاب المواكب، حتى غدوا يُنادون إلى مواكبهم وكأنّها بضاعةٌ سوق يتنافس فيها المتنافسون، وهم على يقين من البركة والربح العظيم، فهم بين غنيّ وفقير يقدمون كلّ أنواع البذل، ... فيختلط الأمر على الحاضرين؛ هل أن هؤلاء يتعبون ويبدلون المال، أم أنّهم يجنونه؟ لست أدري... لا بدّ من أن لهم ما يكسبونه، وأنّ لهم مع الله عزّ وجلّ تجارةً لن تبور!» (ص ٥١).

وحتى أفراد القوة الأمنية لهم نصيبٌ من الحديث: «إنّهم بالطبع لهم نصيبٌ من زيارة الزوّار جميعاً، وهم يهتّون لهم الزيارات ممتنين لبذلهم الغالي والنفيس، في سبيل الحفاظ على استمرار الزيارة وأمان هذا الوطن.» (ص ٥٤).

أما الراوية الثانية كوثر، التي توثق مشاهداتها وانفعالاتها في فصل واحد «وجدتها»، فإن الكاتبة تترك لها لسان السرد لتحكي قصتها عبر ثلاثة أيام من المشي انطلاقاً من النجف نحو كربلاء، في أواخر أيام الزيارة أي قبيل الأربعين بثلاثة أيام... والمميز هنا أن كوثر تسير برفقة أولادها، وهو حدث اعتيادي للزائرين، لكنه مميز في تطبيقه وفي عنائه ولذته، وهي تكاد تضع من خلاله خطة للزائرات ذوات الأولاد، ليكون لديهم دليل على طريقة السير بأقل معاناة ممكنة مع مسؤوليات الأطفال، فهم يمشون حتى نقطة معينة، العمود رقم ١٠ في اليوم الأول، ثم يعودون لبيوتهم بالنجف، وفي اليوم التالي يأتون بالسيارة إلى نفس العمود، ليتابعوا المشي منه، وهكذا، تتكرر العملية حتى العمود ٤٤٠، وتتكرر العودة ثم القدوم بالسيارة في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث يأتون بالسيارة إلى العمود رقم ٤٤٠، ليتابعوا السير حتى العمود ١٣٠٠، وفي اليوم الأخير يتابعون بنفس الطريقة، وينهون رحلة المسير في الأربعين... طريقة المشي ملفتة حقاً، فلا يعتذرون أحدهم لأنه لا يستطيع المبيت إلا في منزله، لأن مثل هذه الطريقة تجعل المستحيل ممكناً... لا عوائق ولا مستحيلات أمام أمّ أرادت أن تعيش الأربعين وأن تعلم أولادها في مدرسته...

الأحداث تتصاعد حتى الوصول إلى يوم الزيارة المقصود، والكل في همّ واحد، كيف يصلون ومتى... وأي خيرٍ وفيرٍ يجنون... على أن العودة على حكاية زينب «رحلة الأربعين بعيون زينب» كما سمّتها الكاتبة، كانت على شكل رسائل متتالية، هي أكثر صفحات الرواية تغلغلاً في المشاعر، فزينب ترى كل شيء بعين القلب، وتعكس رؤيتها على قلب القارئ فيشعر بها حقاً، فمع الرسالة الأولى تقول: «بسم الله وفي سبيل الله وعلى سنة رسول الله، هكذا خرجت من منزلي بكل رحابة صدر، لا آبه بما تركت، ولا أخاف ممّا سألقى؛ يكفيني أنني وفقت أخيراً للمسير إلى الحسين ﷺ».

من باب منزلي ولمدة ساعتين، كان كُلُّ شيءٍ موحشًا: شوارعٌ خاليةٌ من طعم الحياة الحقّة، تشبه حياتنا الدنّيا، علّمتني أنّ الاستعانةَ بالله وبأهل البيت (عليهم السلام) هو الأُنس الوحيد الذي يُرافقنا إلى الأبد، وأنَّ كُلَّ ما حولنا سنفارقُه يومًا ما، وسيغدو موحشًا...

هنا شعرت بأنّي وصلت إلى حدود المدينة المثاليّة... خرجت من عالم المادّة إلى عالم الحسين (عليه السلام). (ص ١١٣ و ١١٤).

وتكثر في الرسائل الأسئلة وعلامات الاستفهام... والأجوبة المستتلة من زيارة الحسين (ع) وحبّه: هل رأيتم عسلًا يُجنى بغير سعي؟

هل رأيتم حبًّا كبيرًا لا يعذب شوقه القلوب؟» (ص ١١٥)

إنها تمشي على رمشها وترى بقلبها... كل الأشياء لها ألوان مختلفة، وتطرح أسئلة كثيرة:

«أفكر: ماذا لو كانت حياتنا كلّها هكذا؟» (ص ١٢١)

«لماذا ينظف هذا الرجل الشارع؟!»

إنه بعيدٌ عن موكبه كثيرًا!!

ما هذا التّفاني؟!»

لماذا لا نفعل ذلك في حياتنا اليوميّة؟!»

هو يعمل الآن حبًّا بالحسين (عليه السلام)...

فلنعمل ذلك كُلَّ يومٍ حبًّا بالحسين...» (ص ١٢٣)

«إنَّ احتمال هذا الجهد يُنبئُك بأنَّ أرواحهم كانت تشتغل، لا أجسامهم فحسب، فالجسدُ يضيقُ والروحُ تتسع.» (ص ١٢٣)

وتختتم مشاهداتها كما بدأتها، بنفس الحرارة والعشق، فالوصول إلى الحسين يزيد هيب الشوق إليه:

«في جواره هامت أرواحنا...»

افترقنا من غير خوف، فإذا كان هذا يومَ الحشر، فمرحباً بالحشر عند الحسين (عليه السلام)...
كنا نتحرى المكان الذي لا يُضِرُّ بحجابنا، وكانت لكلِّ منا قصتها، وكان للملايين حولنا قصصٌ مختلفة... وكلُّ منا يرى أنه في رعاية إمامه وعينه...

فيا له من مذبح تلوذُ به الجموعُ طلباً للأمان، ومن عطشان يُسقى باسمه في كلِّ مكان!..» (ص ١٣٦).

هكذا أرخت الكاتبة ووثقت لزيارة الأربعين، من خلال ثلاثة دروبٍ مختلفة، تشارك في هدفها وكيفيتها وزائريها وخدامها ومواكبها، فالكل يبدأ بالحسين وينتهي به.

بكلمةٍ أخيرة، مشاهدات الروائتين تصلح مصدرًا للمعرفة طريق الزيارة، وتحمل إلى جانب الشحن العاطفي نقلاً أميناً للأحداث كما هي... إنه الجانب البحثي من الرواية... ولئن لم تستطع الرواية أن تكون بحثاً لاختلاف مطلبها والكثير من عناصرهما، إلا أنها أثبتت أنها قادرةٌ على ولوج باب التاريخ والتوثيق، مع محافظتها على روحية القص والتشويق.

يخلص هذا البحث إلى استنتاج عام يتعلق بالرواية الحسينية عموماً، وآخر خاص يتعلّق بالرواية الأربعينية، فيؤكّد على خصوصية كلّ منهما وانفرادهما بذلك الدمج بين التاريخ والقصة، والبحث العلميّ والسرد الفني، مع تميّز كلّ منهما بعناصر خاصة تعطيها هوية أدبية ذات طابعٍ عصري.

إنها الرواية الأربعينية إذاً، حسينية الانتماء تمتدّ بجذورها إلى أعماق التاريخ، فتستمدّ من تربته الغنى والعطاء، وتخيّم بفروعها وأوراقها على عوالم الحاضر، فتستمدّ من شمسها النور والغذاء، وتتّجه ببراعمها وثمارها نحو المستقبل القريب والبعيد، لتفتح آفاقاً جديدةً لهذا النوع العتيق من الأدب الحسيني الخالد.

الرواية الأربعينية تمشي مع المشاية، تحكي حكاية شعوبٍ وصور، وقلوبٍ وبشر، وتفتح على العالم أجمع، لأنها تدوّن للحاضر والمستقبل ما يحمله الماضي من عبر، وما يعيشه أبناء الحاضر من عشقٍ ترجمه الخطوات والأصوات والآهات والصرخات، وكل الحياة حين تتحوّل من أحداثٍ عابرةٍ إلى وقائع متجدّرة، وهي تحكي بقدر ما توثق، وتروي بقدر ما تؤرّخ، وتقدّم القصة مطعّمةً بالحقيقة الناطقة.

المصادر والمراجع

١. ابن طاووس، «إقبال الأعمال»
٢. ابن قولويه، «كامل الزيارات»
٣. العلامة المجلسي، «بحار الأنوار»
٤. زهراء الشهريلي، «١٤٥٢ عموداً»، بيروت، دار الولاية، ٢٠٢٣
٥. سيد قطب، «النقد الأدبي أصوله ومناهجه» (الإصدار الثامن)، القاهرة: دار الشروق
٦. عبد الدائم السلامي، «كنائس النقد» (الإصدار الأول)، ٢٠١٧
٧. لبنى مجيد الشيخ زيني، «غيّرتها الشمس»، بيروت، دار الولاية، ٢٠٢٣
٨. محمد حسين الأصبهاناتي، «نور العين في المشي إلى زيارة قبر الحسين (ع)»، شبكة الفكر